

مع قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾

أخى :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ ... الآيات لتعرف أن معنى النفس المطمئنة الساكنة . يقال اطمأن الرجل اطمئناناً المطمئنة هي الساكنة . وهو مطمئن إلى كذا ، فالنفس المطمئنة هي التي اطمأنت بالله في وعده ووعيده ، وفي قضائه وقدره خيره وشره . فاعلم أخى أن النفس إذا سكنت لأوامر ربها وارتاحت إليها وبرزت في الحياة الدنيا بالأعمال الدالة عليها . سميت مطمئنة ، وقد فسر الله صفة المطمئنة بقوله : ﴿ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً . فالرجوع إلى الله بمعنى قصده وعبادته ، وتنفيذ أوامره والانتفاء عن نواهيه ، فبالرضا التام والتسليم المطلق تكسب النفس الاتصاف بالطمأنينة . وقد خاطب الله سبحانه وتعالى النفس بذلك حيث هي التي عليها المعول والاكتمال للصفة ؛ لأن الرجوع إلى الله قد يكون اضطراراً من الإنسان . ولما كان لا قيمة لمثل هذا الرجوع ذكر الله صفة الرضا من النفس لأهميتها . كأنه سبحانه وتعالى يقول : إذا لم يكن الرجوع إلى الله باختيار النفس ورضاها فلا قيمة ولا وزن للرجوع الاضطرارى حيث النفس غير مطمئنة ولا ساكنة لأمر الله وقضائه وقدره . قال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ فالرجوع إلى

الله كرهاً لا أجر عليه ، ولا خير يرجى منه قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ كما قال عز وجل : ﴿ أَتَيْنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتْ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ واعلم أخى أن العبرة بالرجوع إلى الله برضا النفس . فإن رضيت النفس ورجعت إلى ربها راضية رضى ربها عليها . وإذا سألتى أخى وقال . ما معنى الرجوع ؟ وما هى حقيقته ؟ وما علامة الرجوع إلى الله ؟ فالجواب : أن الرجوع عموماً . هو إثارة مرضاة الله سبحانه وتعالى على هوى النفس ومرضاتها . ومخالفتها فى سبيل متابعة الحق . فمثلاً أذن المؤذن لصلاة العصر وأنت فى بيتك فالنفس تحدثك بالصلاة فى البيت لأسباب كثيرة تذكرها لك : الحق يطالبك بالذهاب إلى المسجد إيثاراً لصلاة الجماعة وتنفيذاً لأمره سبحانه . فإن خالفت نفسك وذهبت إلى المسجد فقد رجعت إلى الله . ومثل آخر أردت أن تعطى فقيراً أو مسكيناً شيئاً يستعين به على قضاء حاجته ، فالنفس بمقتضى شحها وطبعها تأبى ذلك . فإذا خالفتها وأعطيتها فقد رجعت إلى الله . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ومثل ثالث : حدثتك نفسك بالزنى أو أثارت الشهوة الجنسية عليك فرجعت إلى أهلك التى أحل الله لك حيث فيها ما فى الأجنبية فقد رجعت إلى الله عن مراد نفسك التى هى أعدى أعدائك . وعموماً نقول : إن الرجوع إلى الله هو الأخذ بمراة فى الأمر والعمل فى حدود الاستطاعة والجهد . وكذلك استدبار مطالب النفس ورفضها مع القيام بالعمل المضاد لرغبتها وهو متابعة الحق ومطالبة النفس بالموافقة والمطالبة بحيث يكون مرادها مبغوضاً ، وعملها مرفوضاً .

أخى :

تفاوت درجات الرجوع حسب الإيمان واليقين والظروف والأحوال . فلو أن نفسك حدثتك بالصلاة فى البيت وبعد لحظة من الوقت ناداك أحد الإخوان للصلاة فى المسجد ففرغت إليه متابعاً له فقد وقع الرجوع إلى الحق . ولكنك فى ذلك مقهور . وهناك نوع من الرجوع خطير وهو الذى يكون

للناس فيه حساب . فأنت تقول لو تخلفت عن المسجد لأتَّهمني الناس بالنقص أو ماذا يقولون عني إذا فقدوني في المسجد وما إلى ذلك من الشبهات والضلالات من معاني الرياء والعجب والغرور . أعاذنا الله وإياكم منها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وليعلم أخى أنه كما تتفاوت درجات الرجوع تتفاوت أيضاً درجات الرضا . وهى كذلك كثيرة لا بأس أن نذكر بعضاً منها . انظر أخى إلى مدى رضا نفسك بالذهاب إلى العمل صباحاً فإنك لا شك تذهب إلى عملك راضياً مطمئناً . وإذا منعت لا تمتنع ، وإذا حيل بينك وبين الذهاب ناضلت دون ذلك . لأن نفسك مطمئنة إلى الوضع راضية به مستقرة عليه . وإذا بحثت عن سبب رضاها . هل هو الذهاب إلى العمل أم لما وراء ذلك من قبض الأجر وصرف المرتب . الجواب معلوم . فهى لا شك غير راضية بالعمل إنما مضطرة إليه لما لها من الحظ في الكسب وطمأننتها على المرتب والأجر . فالرضا بالمكسب وعلى الكسب لا بالعمل وعلى العمل . وهل الكسب مقصود لذاته ؟ كلا إنما هو وسيلة إلى أغراض النفس وشهواتها . فإذا لم تجد ذلك الكسب نفرت من العمل لأنها تجرى وراء حياة كلها شهوات وملذات . ولما كانت الحياة بخيرها وشرها من الله أمرنا الله وحضنا على طلب الحياة به قال تعالى ؛ مِينَا هَذَا . ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ وقال أيضاً ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ وقال أيضاً ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ كما قال عز وجل : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ وقال ﷺ في حديث ما معناه « أنا لست كهيتكم إنما أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » وقد علم أن المراد بهذا طعام الأرواح وشرابها وما يفيض عليها ربها من ألوان البهجة والسرور . ولينظر أخى إلى النفس يوم صرف المرتب في آخر الشهر ، ومدى رضاها . وقارن بين شعورها في هذا اليوم والأيام السابقة يدرك أخى الفرق واضحاً بين درجات الرضا كما ننظر إليها وهى راجعة إلى البيت في ساعة الفطور في رمضان أو رجوعها إلى البيت بعد نهاية العمل اليومي سيجد الفرق واضحاً ملموساً .

أخى :

إن الخطاب من الله موجه إلى النفوس التى اطمأنت به وعليه . فالطمأنينة هى أولى درجات الإيمان . وهى على ضوء ما أعتقد أول منازل التحقيق ، والدرجة التى تليها هى درجة الرجوع إلى الله بمعنى التجرد من هوى النفس كما تقول لشخص ارجع إلّى فى الأمر فهذا معناه رفض كل ما سواه . والرجوع إلى الله أنواع ودرجات . رجوع بالأعمال . ورجوع بالصفات . ورجوع بالفناء فيه . دعنى أهمس فى أذنك أن الرجوع الحقيقى إلى الله هو ألا يكون لك حظ سواه . فهذا هو المطلوب المراد بقوله سبحانه : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أى حقيقتك نعبد . وبحقيقتك نستعين ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ . وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿ .

أخى :

قد يكون الرجوع مشوباً بحظ النفس ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ كما تقول لصاحب حاجة إليك ارجع إلّى ، فإنه يرجع إليك على قدر علمه بك ، وثقته فيك ، وإيمانه بقدرتك على قضاء حاجته . وقد يرجع إليك من باب المجاملة لك ومن باب الاستئناس برأيك فى قضاء حاجته . فالعبرة برجوعه إليك شعوره وإحساسه . ولذلك قال تعالى ﴿ يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴿ أى ارجع منسلخه عن مزاجك وهواك وصفاتك وخصالك ؛ فإنى بمقتضى ربوبيتى لك قائم بشئونك ، مدبر لأمرك فى حدود ما يصلحك . فارجعى إلّى راضية بحكمى فيك وقضائى عليك حيث رضاك بكل ما سيكون منى إليك وعليك هو الأساس فى قبول رجوعك إلّى فإذا رجعت إلّى راضية بحكمى فيك وقضائى عليك وأنا الرب الرؤوف الرحيم فجزاؤك على هذا رضائى عليك ؛ فإن رضاك بحكم قضائى يجلب لك رضائى عليك . ﴿ رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

وقد علمت أخى أن من علامات رضا الله على عبده إضافته إليه سبحانه بصفة العبودية . ﴿ فَأَدْخِلْنِي فِي عِبَادِي ﴾ العبودية الخاصة التى يكرم الله بها الخواص من عباده . ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ

هُوناً ﴿ .. الآيات فإذا قال أخى . وما علامة العبودية الخاصة ؟ الجواب : استيلاء الرحمة على قلوبهم حتى تصبح طبيعتهم الرحمة والإشفاق على جميع المخلوقات والنظر إلى كل شيء من الله بعين الرحمة . فالرخاء والشدة عندهم فى الحكم سواء ، والنعم والمصائب كلها رحمة من الله قال تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ فمن كان عبداً لله ينظر إلى كل شيء بصفات الرحمة من الله حتى الموت الذى يصيبه يراه رحمة منه وفضلاً . ولذلك يمشون على الأرض هونا (أى غرباء) الإحساس فى ملامسة الأرضيات . ومعنى هذا أنهم لا يتعلقون بالحياة الأرضية تعلق الخالدين فيها . تهون عليهم الحياة الدنيا كأنهم ليسوا منها ولا إليها . لا يتعالون على أحد ، ولا يتكبرون على شيء فالدنيا عندهم كالاستراحة المؤقتة . أسبابهم إلى الحياة الدنيا هينة خفيفة ، لا يتعالون ولا يتشددون . لا إصرار على الأسباب ولا تعلق بها ؛ لأن صلتهم بمُسَبِّب الأسباب . هو الله رب العالمين . يمشون على الأرض هوناً - أصبحت طبيعتهم السكينة والوقار لما يتدثرون به من هبة الإيمان ، وصولة العبودية . ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ فعند الامتحان يُكْرَمُ المرءُ أو يُهَانُ - ومن هنا نعلم أن من لم يقابل الإساءة بالإحسان ، والاعتداء بالعفو (مقابلة الشر عموماً بالخير) فما أحسبه من عباد الرحمن كما ذكر الله فى آياته السابقة جعلنا الله وإياكم من عباد الرحمن حقاً .

قال تعالى : ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾

فمن دخل فى حظيرة العبودية تَوَلَّاهُ الله ورعاه ، وكتب له التوفيق ، وسدد خطاه لأنه صار عبداً لله ظاهراً وباطناً ، وأصبح ممن قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ ولما كانت الجنة محل رضوان الله ، وموضع إكرامه كافاً الله بها عباده حيث أعدها للمتقين منهم . ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ .

* * * *